37.43
NA
A181

تاريخ البحرية الإسلامية

في مصر والشام

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

تأليف

الدكتور احمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ الاسلامي
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الاسلامي
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

10

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧١٩

مقدمة

أثبتت البحوث العلمية الحديثة الدور الهام الذي تلعبه القوى البحرية في المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية، ولهذا خصّها الباحثون بنصيب وافر من عنايتهم، فصنفوا فيها المؤلفات المطولة، واعتبروها من الموضوعات الرئيسية في البحوث التاريخية.

وتشغل القوى البحرية الإسلامية مركزاً طليعياً في تاريخ البحار والمحيطات المعروفة في ذلك الوقت، ولعل ذلك كان من الاسباب التي حملت الباحثين على تناول هذا الموضوع بالدراسة والبحث من مختلف نواحيه السياسية والاقتصادية[1]. وينبغي أن نقر هنا بأهمية هذه الأبحاث بالنسبة للتاريخ الاسلامي بوجه خاص وللتاريخ العالمي بوجه عام. إلا أنه يلاحظ أن

---

(١) نذكر منها على سبيل المثال :

W. Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge, (2 vols., Leipzig, 1885) — J. B. Bury, The naval policy of the Roman empire, in relation to the western provinces from the 7th to the 9th century (Centenario della nascita di Michele Amari, vol. II, Palermo, 1910) — Ali Fahmy: Muslim sea power From the seventh to the tenth century A.d. (1950)

وراجع أيضاً : اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دولة البحار – ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط – هونيرباخ ، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية، معهد مولاي الحسن ، تطوان – حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر المتوسط (المجلة التاريخية المصرية ١٩٥١) – اسماعيل مظهر ، السفن والملاحة بمصر (مجلة المقتطف ١٩٣٤) – أحمد دراج ، المماليك والفرنج – أحمد بن ماجد السعدي ، كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد – عبد الفتاح عبادة ، سفن الاسطول الإسلامي – ياسين الحموي ، تاريخ الاسطول العربي – ابراهيم أحمد العدوي ، الأساطيل العربية في البحر المتوسط – سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية .

معظم هذه البحوث قد اقتصرت في معالجة موضوع البحرية الاسلامية على فترات محدودة من التاريخ الإسلامي ، أو اكتفت بدراسة مجال معين من مجالات النشاط البحري الإسلامي الذي لم تكن له حدود ، ولهذا تفتقد هذه البحوث — رغم قيمتها وأصالتها — إلى النظرة التاريخية الشاملة التي تحدد لنا الصورة المتكاملة لتاريخ البحرية الاسلامية في شرق العالم الاسلامي وغربه في العصر الوسيط . ولسنا نشك في صعوبة تنفيذ هـــذا البحث الشامل لعاملين : الأول ، اتساع رقعـــة العالم الإسلامي وامتداده شرقاً وغرباً ، وامتداد النشاط البحري الإسلامي بالتالي إلى بحار ومحيطات لا حدود لها ، والثاني ، استمرار التاريخ الإسلامي واتصاله منذ قيام الإسلام كدين ودولة حتى ختام العصر الوسيط . ويستلزم الأمر لتحقيق مثل هذا المشروع الضخم نوعاً من التعاون المشترك والجهود المتضافرة من الباحثين ، ومـــا زلنا نؤمن بأهمية البحوث الجماعية ونقدر الجهود العلمية المشتركة ، والتعاون العلمي الصادق المنسق في إنتاج مثل هـــذه الدراسات الشاملة . ولقد أدركنا هذه الحقيقة منذ البداية ، وكان من ثمرته ظهور كتابنـــا الأول عن تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس منذ الفتح العربي حتى سقوط مملكة غرناطة . وشجعنا النجاح الذي أسفرت عنه التجربة على المضي قدماً في تنفيذ المشروع كله ، واليوم نصدر الكتاب الثاني عن البحرية الاسلامية في الشام ومصر ، ويبقى علينا بعد ذلك لاستكمال دراسة تاريخ البحرية الإسلامية أن نصدر بحثاً ثالثاً عن تاريخ البحرية الإسلامية في بحرَي اليمن وعمان والمحيط الهندي .

ويقترن تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر بحركة الفتوحات الإسلامية التي بدأت في خلافة أبي بكر واستمرت طوال عصر الخلافة الراشدة ثم في عصر الدولة الأموية ، فقد كان لزاماً على العرب بعد أن تمّ لهم فتح الشام ومصر ، وأصبحت لديهم سواحل متصلة تطل على البحر المتوسط أن ينتهجوا سياسة بحرية رضوا أم كرهوا ، لأن استيلاء المسلمين على الشام ومصر أدى إلى تمزيق وحدة الامبراطورية البيزنطية ، وحكم بفصل

بيزنطة عن ولاياتها التابعة لها فيما وراء مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي ، وأصبح البحر وحده الوسيلة الوحيدة للربط بين أجزاء هذه الامبراطورية[١] ، وكان ذلك نذيراً بقيام صراع بحري مرير بين القوى الإسلامية (التي كانت تعتمد اعتماداً تاماً على المعارك البرية) والقوى البيزنطية (المتفوقة في الحروب البحرية) عاجلاً كان ذلك أم آجلاً لحسم مشكلة السيطرة على حوض البحر المتوسط . وعمد العرب الفاتحون بالضرورة إلى انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي الماثل على ثغور المسلمين ، وتوسلوا في ذلك بادئ ذي بدء بوسائل دفاعية برية[٢] ، فاتجهوا إلى مرمة الحصون الساحلية في الشام ومصر ، وإقامة الأربطـــة والمناظر والمسالح على طول الساحل ، وشحنها بالمقاتلة ، واتخاذ المواقيد للإنذار باقتراب سفن الروم من السواحل[٣] ، بل إن معاوية — وهو بعد وال على الشام — نقل أهالي المناطق الداخلية إلى هذه السواحل ، ومنحهم فيها الإقطاعات الواسعة مستهدفاً من وراء ذلك تشجيعهم على ركوب البحر[٤] . وعلى هـذا النحو أصبحت سواحل الشام مبثوثة بالقلاع والأبراج التي كانت أشبه شيء بسور يمتد بحـــذاء الساحل[٥] اعتمد عليـــه العرب في الدفاع البحري ، وحظيت سواحل الاسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط في مصر وسواحل عكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة وأنطاكية في الشام بقلاع ومحارس شحنت بالحاميات المرابطة .

ثم مضت مرحلة الدفاع البحري بوسائل برية عندما فشلت بيزنطة في استرداد الساحل الشامي سنة ٢٣ هـ ، والمصري في سنة ٢٥ هـ أمام قوة

(١) مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، ص ٢ .
(٢) عبد العزيز سالم ومختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ١٦ .
(٣) عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٣٣ — تاريخ الدولة العربية ، بيروت ١٩٧١ ص ٥٣٦ .
(٤) مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣ — عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ص ٥٣٦ .
(٥) Cheira (M.A.), la Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 87.

الدفاع العربي الإسلامي ، واستقرت دعائم السيادة العربية الإسلامية في الشام ومصر ، وآن للعرب في خلافة عثمان أن يجاروا البيزنطيين في اصطناع سياسة بحرية دفاعية وهجومية في آنٍ واحد ، وتحتم عليهم أن ينشئوا الأساطيل ، واضطرتهم الظروف إلى الاستعانة في ذلك بأهل البلاد المفتوحة كأقباط مصر[1] وملاحي الشام الذين كانت لهم تجارب بحرية واسعة النطاق في تاريخهم القديم ، وأمجاد وبطولات سجلها التاريخ البحري للفينيقيين والمصريين منذ أقدم العصور حتى عصر التبعية للرومان والبيزنطيين . كذلك استعان معاوية بالعناصر العربية اليمنية في تسيير السفن الإسلامية وقيادة العمليات البحرية في الشام وذلك لتفوقهم على منافسيهم من القبائل القيسية في هذا المجال. والواقع أن عرب اليمن منذ عصر ما قبل الإسلام حتى عصر الفتوح الإسلامية ، وإن كانوا قد قطعوا كل اتصال لهم بالبحر ، وأهملوا شؤونه ، وأوقفوا كل نشاط لهم عبر مياهه ، وافتقدوا الدربة على ركوبه وخوض أهواله ، لانصرافهم إلى التجارة البرية إبان الغزوين الحبشي والفارسي لليمن ، لم يكونوا قد فقدوا تماماً تقاليدهم البحرية التي اكتسبوها من خلال تاريخهم الطويل وتجاربهم الماضية في ممارسة الملاحة ، والطواف بسفنهم التجارية في البحر الحبشي أو الإريتري ، وترددهم على موانئ البحر العربي والمحيط الهندي[2] ، فقد رسخت هذه التقاليد في كيانهم ، وظلت

(١) تخصص الأقباط في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها . وقد ثبت أن السفن التي تستخدم المسامير في تثبيت ألواحها أفضل من السفن التي تشد بالحبال (راجع : فلهلم هونيرباخ ، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ، تطوان ١٩٥٤ ، ص ١٨ – ٢٠) . وقد أدرك حسان بن النعمان الغساني هذه الحقيقة عندما واجهته مشكلة إنشاء دار صناعة تونس ، فطلب من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أن يبعث إليه بعدد من الأسرات القبطية بمصر ليعتمد عليهم في قيام البحرية الإسلامية في بحر إفريقية ، فوجه إليه ألف أسرة قبطية (راجع التفاصيل في : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٢٨ – ٣٤) .

(٢) لا ينبغي أن ننسى أثر موقع بلاد اليمن وعمان والبحرين على سواحل البحر الحبشي وبحر العرب وبحر عمان في تطلع سكان بلاد العرب الجنوبية نحو البحر ، واشتغالهم بالملاحة فيه ، وكان ذلك من العوامل الرئيسية في تفوقهم البحري .

كامنة في أعماقهم ، في عصور الاحتلال الحبشي والفارسي ، إلى أن تهيأت لها ظروف مواتية للظهور منذ عصر الفتوحات فنشطت بعد خمول[1] ، وتجلت مواهب اليمنية في قيادة السفن وظهرت براعتهم في الغزو البحري في بحار الشام ومصر والمغرب والأندلس ، فظهرت شخصية جنادة بن أبي أمية الأزدي اليمني ، الذي اعتمد عليه معاوية في غزو قبرص ورودس وإقريطش . كذلك يرجع إلى اليمنية الفضل في إنشاء أول قوة بحرية إسلامية في الأندلس في وقت لم يكن للدولة الأموية أسطول بحري رسمي : فزياد ابن عمرو اللخمي الذي سيّر إلى بلج بن بشر القشيري وأصحابه وقد حصرهم البربر في سبتة سنة ١٢٤ هـ سفينتين مشحونتين بالميرة كان يمنياً لخمياً ، وأبوفريعة وصاحبه تمام بن علقمة اللذان كان لهما بصر في ركوب البحر وتوليا نقل عبد الرحمن الداخل من أرض المغرب إلى ثغر المنكب بالأندلس في سنة ١٣٨ هـ يمنيان ، وطائفة البحريين الذين كانوا يرابطون على سواحل الأندلس ، ويغزون في البحر التيراني يمنيون من بني سراج القضاعيين ، ومنهم بنو أسود الغسانيون[2].

ثم جاءت اللحظة التي كان لا بد للعرب من تمكين دفاعهم البحري بإنشاء مزيد من السفن في داري صناعة الاسكندرية وعكا ، وتطلع العرب إلى آسيا الصغرى كمورد جديد للأخشاب اللازمة لصناعة السفن بخلاف جبل لبنان وأحراج مصر العليا ، وفطنت بيزنطة إلى ما يهدف إليه العرب ، فأرادت أن تفوت عليهم فرصة الانتفاع من هذه الموارد البيزنطية ، فكان الاشتباك البحري الحاسم في ذات الصواري سنة ٣٤ هـ الذي سجل

(١) كان القادة البحريون الذي أدبهم عمر بن الخطاب أو لامهم لتغريرهم بالمسلمين في بحر فارس وبحر عمان وبحر الحبشة يمنيين : فالعلاء بن الحضرمي الذي حمل أهل البحرين في البحر إلى فارس بغير إذن عمر كان يمنياً حضرمياً ، وعرفجة بن هرثمة الأزدي الذي أغزي قومه في البحر كان يمنياً أزدياً ، وعلقمة بن مجزر المدلجي صاحب الحملة البحرية إلى الحبشة في سنة ٢٠ هـ كان يمني الأصل لخمياً .

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، ص ٢١ ، ٢٧ .

نهـاية السيطرة البحرية البيزنطية وبداية عصر القوة في تاريخ البحريـــة الإسلامية . ولم يلبث العرب بعد هذا الانتصار الحاسم أن تطلعوا إلى غزو جزر البحر المتوسط الشرقي والغربي ، وأدرك الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني نوايا المسلمين التي تستهدف السيطرة على حوض البحر المتوسط كله ، وقطع الإتصال بين بيزنطة وبين أملاكها في إيطاليا وصقلية والمغرب ، فعمد إلى نقـل عاصمته إلى سرقوصة بصقلية تركيزاً للدفاع عن إيطاليا أمام الدفع السريع للفتح الإسلامي للمغرب[1].

وبعد فهذا البحث الذي نقدمه اليوم تتمة لبحثنا السابق عن البحرية في المغرب والأندلس ينقسم إلى موضوعين رئيسيين : الأول — يتناول تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر حتى نهاية العصر الفاطمي[2] لعبد العزيز سالم ، والثاني يعالج تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر في العصرين الأيوبي والمملوكي لمختار العبادي .

ويشرفنا أن نقدم هذا البحث في سلسلة منشورات **دار النهضـــة العربية** والله ولي التوفيق .

المؤلفان

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٩٤ .

(٢) اهتممته بوجـه خاص بالبحرية الاسلامية في العصر الفاطمي باعتبار أنه العصر الذي برزت فيـه أهمية البحرية المصرية والشامية وأثبتت وجودها ، فخصصت لها باباً ثانياً قائماً بذاتـه ، واعتبرت الباب الأول بفصليْه دراسة تمهيدية للبحرية الفاطمية التي لم يسبق للباحثين أن قاموا بدراستها بالتفصيل .

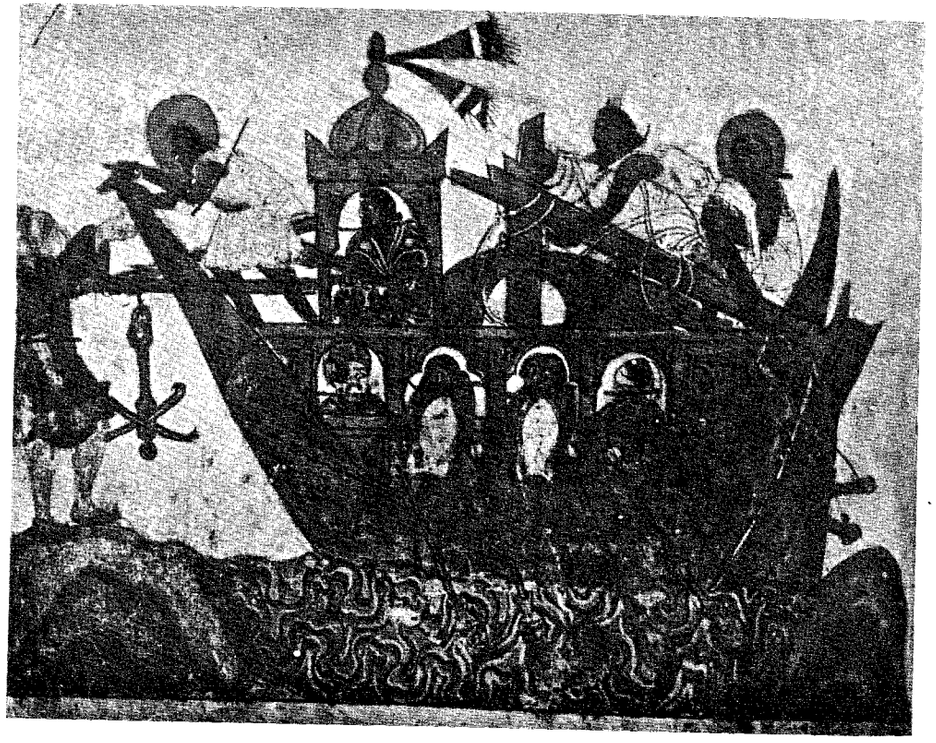

سفينة اسلامية (نقلاً عن مخطوطة محفوظة في لينينغراد)
من كتاب Arab Painting *(By : Skira)*